

[١٣] القسم الأول

شبه القارة العربية

الفصل الأول

إفريقيا الأسيوية

يستحق الكيان الجغرافي الذي تشكله الجزيرة العربية، الواقعة في أقصى غرب آسيا، أن يحمل اسم شبه قارة. تتخذ جزيرة العرب شكل شبه منحرف، ويحيط بها الماء من ثلاث جهات. في الغرب، يفصلها البحر الأحمر عن إفريقيا التي ما تزال شبه جزيرة سيناء تربطها بها. وتغتسل شواطئها الجنوبية بمياه خليج عدن والمحيط الهندي. ويحدها من الشرق خليج عُمان والخليج العربي^(١).

إن حدودها الشمالية وحدها برية. وهي حدود غير واضحة المعالم، وموضع خلاف، تضيع معالمها في صحراء سورية وبلاد الرافدين. وإن الصورة التي تعكسها الحدود السياسية الحالية ليست من الواقع في شيء^(٢).

تشغل الجزيرة العربية في امتدادها الحالي مساحة ٣ ملايين كيلومتر مربع^(٣).

(١) يسميه المؤلف على عادة الغربيين في كتبهم: الخليج الفارسي. وقد سميناه الخليج العربي في كل موضع ورد فيه؛ انظر في تسويغ تسميته بالخليج العربي ما جاء في كتاب: جزيرة العرب موطن العرب ومهد الإسلام، تأليف مصطفى مراد الدباغ، دار الطليعة، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، ج ٢، ص ٩٧-١٠٧؛ ومن الجدير بالذكر أن لجان-جاك بيربي كتاباً عنوانه: الخليج العربي، ترجمه إلى العربية نجدة هاجر وسعيد الغز، وطبعه المكتب التجاري، بيروت: ١٩٥٩م (المترجم).

(٢) قال مصطفى الدباغ في كتابه: جزيرة العرب... م.س.، ج ١، ص ١١، «... ويمكن اعتبار حدها الشمالي الخط الوهمي الواصل بين العقبة ومصب شط العرب. وهي بذلك تقع بين خطي عرض ٥٣° و ١٢° شمالاً، ويمر بها مدار السرطان، وبين خطي طول ٣٥° و ٦٠° شرقي غرينتش» (المترجم).

(٣) في كتاب الدباغ، مذكور سابقاً، ج ١/ص ١٢: «... وتقدر مساحتها بأكثر من «١،٢٤١،٥٤٣» ميلاً مربعاً: «٤٨٥، ٢١٥، ٣» كم^٢، ثلثها صحارى رملية» (المترجم).

والقسم الأكبر من هذه المساحة الشاسعة أرض صحراوية، ولكننا نجد في بعض المناطق مساحات خصبة جداً. إن التقسيمات القديمة التقليدية للجزيرة العربية هي: بلاد العربية الصخرية، وبلاد العربية الصحراوية، وبلاد العربية السعيدة، لها ما يسوغها، على الرغم من أن الجزيرة العربية لا تحوي إلا القسمين الأخيرين.

المناطق الطبيعية

ليس للجزيرة العربية من الملامح الآسيوية إلا الاسم الذي أطلقه عليها جغرافيون تنقصهم الحصافة. إذ لم يعد [١٤] هناك شك في أنها قطعة انفصلت عن القارة الإفريقية في حقبة جيولوجية حديثة نسبياً. وشبه جزيرة سيناء، مع أنها مرتبطة سياسياً بمصر، فإنها تنتمي إلى التكوين الجغرافي نفسه.

إذاً، تشكل الجزيرة العربية مع إفريقيا كياناً جغرافياً واحداً، ناهيك عن وجود وحدة عرقية، ولغوية، ودينية، وثقافية تجعلها أكثر ارتباطاً بالأقسام الإفريقية في الطرف المقابل. إن التشابه في الظواهر الطبيعية والمناخية، والإنسانية والاجتماعية بين بلاد العربية الصحراوية وبلاد الصحراء الإفريقية، وبين بلاد العرب السعيدة والحبشة يستدعي التسمية التي أطلقناها: «إفريقيا الآسيوية»، وإن الصدع الجيولوجي للبحر الأحمر الذي يفصل القارة الإفريقية عن شبه القارة التابعة لها يقسم الصحراء إلى قسمين، شأنه في ذلك شأن نهر النيل.

تميل الهضبة العربية الضخمة إلى الانحدار من الغرب نحو الشرق. وأحدث انزلاق الجرف الصخري الغربي حافة جبلية تمتد من الشمال إلى الجنوب على طول البحر الأحمر. تترك سلاسل الجبال التي ترتفع نحو الجنوب أمامها مكاناً سهلاً ساحلياً منخفض، ضيق، خطر، يسمى تهامة؛ ولا يكاد عرضه يتجاوز ٥٠ كيلو متراً، وترتفع وراء ذلك السهل جبال سوداء جرداء. إنها جبال الحجاز التي تخترقها

ممرات قليلة تربط بين الساحل والداخل . وإذا انحدرنا نحو خليج عدن وجدنا الصخور البركانية وقد بدأت تدب فيه الحياة. ففي عسير واليمن بصورة خاصة، تهطل الأمطار بغزارة مما يجعل هذا الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية بلاداً خضراء تحدثت عنها الروايات والأساطير العربية. إن تنوع المناخ، والأراضي التي تأخذ شكل المدرجات كما في المكسيك، يسمح بتنوع الزراعات تنوعاً كبيراً؛ فنجد المنتجات المدارية، والشبه-مدارية، والثمار والخضار التي تنشأ في المناخ المعتدل الأوروبي .

إن السهل الساحلي على طول خليج عدن والمحيط الهندي هو أكثر ضيقاً ، وأكثر وحشة أيضاً من تهامة على البحر الأحمر . وهو في أقصى الغرب يحاذي المرتفعات الجبلية اليمينية . وإذا توغلنا نحو الشرق، نحو حضرموت وعمان، وجدنا الهضاب الكلسية، التي تفصل بينها جروف عميقة، مسبوقه أحياناً بتلال تكسوها الأشجار . أما في الجنوب الشرقي للجزيرة العربية فترتفع سلسلة جبلية جديدة على طول [١٦] خليج عُمان، وراء حزام ساحلي خصب نسبياً . ونجد على امتداد الخليج العربي أخيراً مساحات شاسعة من الرمال، وسبخاً ملحية، نعلم أن جوفها يحتوي كميات هائلة من البترول .

أما داخل الجزيرة العربية فهو صحراوي رملي أو حجري . وهناك يلحظ المرء بعض الآثار التي تحمل على الظن أن القسم الصحراوي من الجزيرة العربية عرف في الماضي السحيق خصوبة نسبية . إلا أنه، ومنذ زمن قديم جداً، ومنذ فجر التاريخ لم تكن الحياة الحضرية ممكنة إلا في عدد من الواحات المنتشرة في الأحساء، ونجد، والحجاز . لقد نشأت في الحجاز الذي يتميز بوقوعه على طريق القوافل الكبرى، أول مدن العربية الوسطى؛ وقد كانت في البداية واحات مزدهرة، ومحطات تجارية، ثم تشرفت باستقبال النبي محمد ﷺ، وأهمها: المدينة المنورة (يثرب القديمة) و مكة المكرمة . وتمتد أحر المرتفعات الجبلية في اليمن وعمان، في الغرب كما في الشرق، وكذلك منحدرات الهضاب الكلسية المرتفعة-الجلول- في حضرموت والمهرة، كل

ذلك يمتد، ليتلاشى في الصحراء التي لا حدود لها، والتي تغطي القسم الأعظم من جنوب الجزيرة العربية. هذه الصحراء الشاسعة، لا ماء فيها، ولا نبات، ولا حياة. إنها صحراء الربع الخالي، الذي يشكل بمساحته البالغة مليون كم مربع أكثر مناطق العالم غموضاً، وأوسع امتداد رملي فيه. ونجد في أقصى شمال الجزيرة العربية، امتداداً لهذه الصحراء يسمى: النفود الكبرى، وهي صحراء رملية تتصل بالصحراء السورية. ويصل النفود الكبرى بالربع الخالي لسانان من الرمال يتجهان نحو الجنوب، هما: النفود الصغرى في الغرب، والدهناء في الشرق؛ وهما يحتضنان هضاب نجد، التي تشكل القلب الصخري لشبه القارة العربية^(١).

هذا الفضاء الرملي الضخم-باستثناء الجبال المرتفعة المعتدلة في اليمن وعمان- يذكر في كل جوانبه بالصحراء الإفريقية، بعروقها، وحماذاتها، التي تسمى هنا نفود وحرث. هنا وهناك المناظر الطبيعية نفسها، والخصائص البشرية نفسها-ويصل التشابه في بعض الأحيان إلى أقصى حدوده، فنجد-التركيب الجيولوجي متقارباً، بل متماثلاً. [١٧]

ونعلم منذ الدراسات التي قام بها الجيولوجي الأمريكي تويتشل K. S. Twitchell أن الثلثين الشرقيين من شبه القارة العربية يتكونان من صخور رسوبية، يمكن أن تحتوي على مخزون بترولي هائل^(٢). وقد اكتشفت كميات ضخمة من السائل الثمين منذ سنوات، وبدأ استثمارها في الأحساء، والكويت، وقطر، والبحرين على وجه الخصوص. وأفضى التنقيب المتواصل بنشاط منذ بعض السنوات، في مناطق أخرى من الجزيرة العربية، إلى نتائج مشجعة. ففي عام ١٩٥٨م تأكد لدينا أن ٥٠٪ تقريباً من الاحتياطي العالمي المعروف مخبوء في جوف الأرض العربية. وترتفع النسبة إذا أضفنا حقول فارس والعراق، لتصل نسبة مدهشة تتراوح بين ٦٥ و ٧٠٪.

(١) انظر كتاب الدباغ، مذكور سابقاً، ج١، ص ٢١-٢٨.

(٢) تويتشل: العربية السعودية، ط٢، ١٩٥٣-رايمون فورون: الشرق الأوسط، بايو، باريس، ١٩٥٧م (كتاب يستفاد من مراجعته كل الفائدة).

مهد العرب والإسلام

يسكن أرض الجزيرة العربية الشديدة الفقر على السطح، والكثيرة الغنى في الجوف، حوالي ١٠ إلى ١٢ مليون نسمة، يجتمع ما يقارب نصفهم في العربية السعيدة القديمة (عسير، واليمن، وجزء من محمية عدن)^(١). ومع أن أغلب هؤلاء العرب من أصل سامي، فما زال هناك بعض الجماعات من العناصر المحلية في الجنوب، حيث تضم المناطق الساحلية خليطاً من الأعراق.

ينقسم العرب^(٢) الذين يتميزون بمعرفتهم الدقيقة بالأنساب، إلى فرعين كبيرين على الأقل، ينتسبان إلى جدين مجيدين، إسماعيل وقحطان^(٣). وينقسم أبناء إسماعيل إلى مضرين وربيعين، ويسكنون شمال الجزيرة العربية ووسطها، أما القحطانيون فأصلهم من العربية الجنوبية الغربية (اليمن وحضرموت)، وهذا موطنهم الأصلي، ولكنهم انتشروا في الشمال^(٤). إن القوة الموحدة الكبرى في الجزيرة العربية هي الإسلام، الذي أرسى النبي محمد ﷺ قواعده في الحجاز في القرن السادس الميلادي. وقد تمكن الإسلام عبر العصور من فرض وحدة لغوية، فكل العرب [١٨] يتكلمون اللغة العربية؛ ولكن ذلك لم يمنع وجود لهجات متعددة محلية، وفي بعض الأحيان غريبة، ويشار في هذا الإطار اللهجات العربية القديمة Proto-arabes التي مازالت موجودة في عُمان وحضرموت.

إن المواجهات الحامية التي نراها اليوم بين أتباع المذاهب المختلفة تتناقض مع ما

(١) هذا التعداد قد يكون مناسباً حال تأليف الكتاب، أما الآن فقد ارتفع العدد كثيراً حتى غدا في المملكة العربية

السعودية فقط أكثر من (١٢,٠٠٠,٠٠٠) مليون نسمة (المنيّف)

(٢) يستخدم المؤلف كلمة Arabiens الإنجليزية لتسمية العرب (المرجم).

(٣) الصحيح أن أنقسام العرب إلى عدنان وقحطان، واسماعيل عليه السلام في نسل عدنان (المنيّف).

(٤) انظر لويس ماسينيون: Louis MASSIGNON دليل العالم الإسلامي، ١٩٥٤، ط٤ (بالتعاون مع فانسان

مونتيي Vincent MONTEIL، المطبوعات الجامعية الفرنسية، باريس، ١٩٥٦م.

ذكرناه عن الإسلام بصفته عنصر توحيد، . ففي الجنوب يتعرض السنة من الشافعية والمالكية إلى ضغط الحنابلة الجدد في نجد، أتباع الإصلاح الوهابي. وتتعارض كل هذه المذاهب السنية مع الشيعة من ذوي النحل المختلفة^(١)، مثل الزيدية^(٢)، والإسماعيلية^(٣) في اليمن، الخوارج الإباضيون^(٤) في عُمان، والقرامطة^(٥) في الأحساء. شهدت الجزيرة العربية، مهد الإسلام، ولادة اتجاهين متعارضين، هما: في اليمن الشيعة الزيديون، الذين يعدون من خصوصيات هذا البلد، وهو اتجاه تنتمي إليه

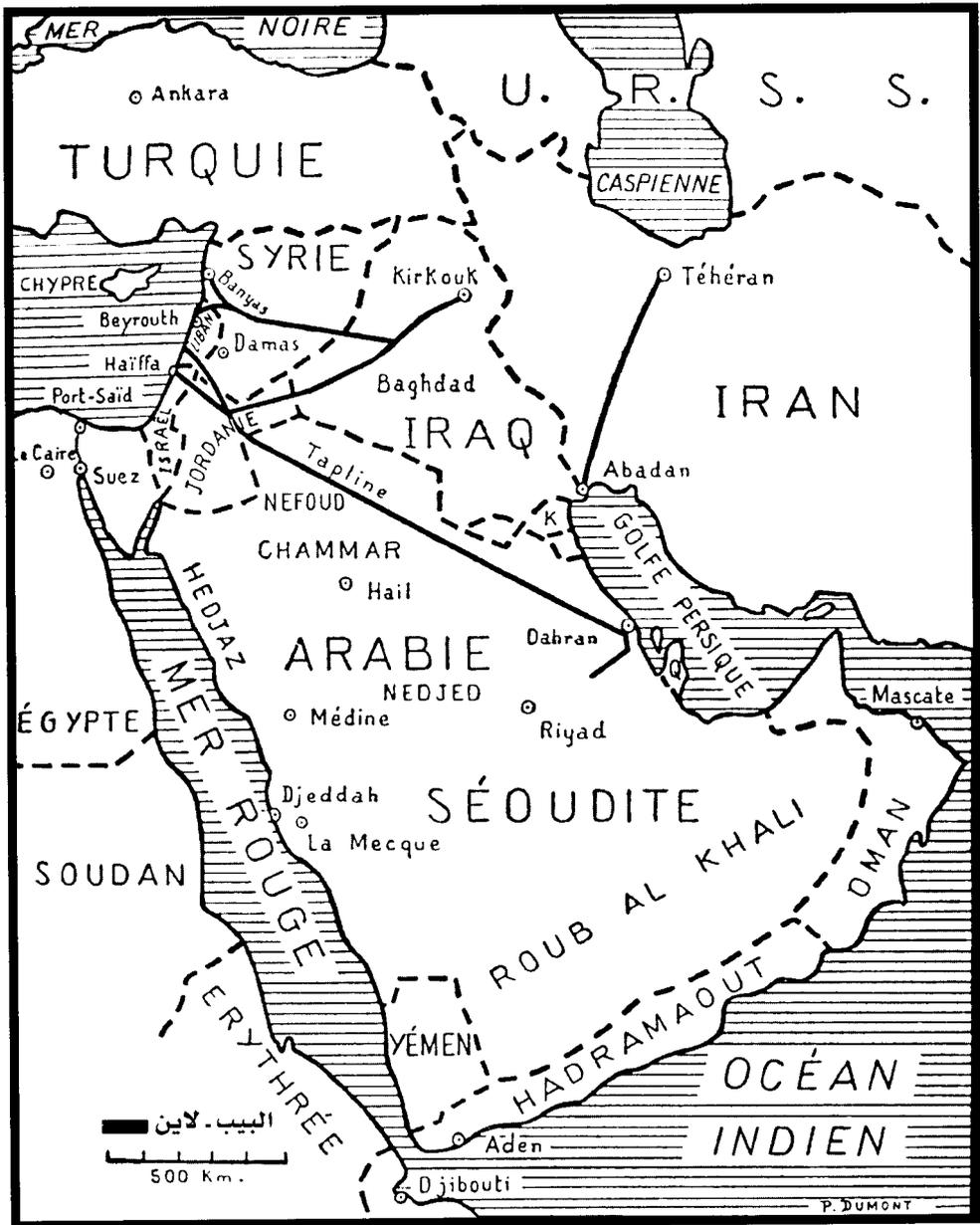
(١) بما أن المؤلف غربي، فإنه يقسم المذاهب الإسلامية وأتباعها على غير هدى، فقله إن المالكية والشافعية تتعرض لضغط الحنابلة ليس صحيحاً، بل إن المذاهب السنية ذات أساس واحد في الأصول، مع اختلاف في الفروع لا يوجد الفرقة. وأما المالكية فليس لهم في جنوب الجزيرة العربية فيما اعتقد اتباع (المنيف).

(٢) الزيدية فرقة كبيرة من الشيعة تتبع زيد بن علي زيد العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وتوفي زيد عام ١٢٢هـ. بعد أن قام مع أتباعه بثورة على الأمويين أدت إلى قتله في عهد عبد الملك بن مروان. ومذهبه فرع من فروع المعتزلة لأنه تتلمذ على يد واصل بن عطاء، رئيس المعتزلة، واقتبس كثيراً من تعاليمه. وفي القرن الثالث الهجري نزل السيد يحيى بن الحسين القاسم الرسي (نسبة إلى جبل الرس) الزيدي القطر اليماني، وأخذ يدعو الناس للمذهب الزيدي، فكثر أتباعه، وانتشر مذهبه في مختلف أنحاء اليمن... وكان يحيى هذا مشهوراً بالقوة والشجاعة والورع والفقه، ويعتمد فقهاء الزيدية على مؤلفاته الكثيرة، وتوفي بمدينة صعدة عام ٢٩٨هـ ويسمى أتباع المذهب الزيود، جمع زيدي. عن حاشية كتاب الديباغ، ج ١/ ص ٢٤٤ (المترجم).

(٣) الإسماعيلية حركة اجتماعية فلسفية سياسية معاً، يدعون إيصال نسبهم إلى السيدة فاطمة والإمام علي. وزعموا أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه اسماعيل نصاً عنه. انظر في تاريخ الإسماعيلية في اليمن كتاب: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، د. أمين فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٩١-٢٠٤ (المترجم).

(٤) الإباضية، أتباع عبد الله بن إباض المري، هم فرقة من الخوارج، ويؤمنون بأن القرآن والحديث هما مصدر الشريعة الإسلامية، وتقول بالرأي لا بالقياس. وتعد أبا بكر وعمر رضي الله عنهما القدوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم. ويتبع هذا المذهب معظم السكان في سلطنة مسقط وإمامة عُمان، بمن فيهم أسرة سلطان مسقط. وقد سعوا إلى إعادة حكم الشورى، وأقاموا إمامة في عُمان «إمامة عُمان» ظلت تظهر وتختفي منذ عام ١٢٩هـ/٧٤٦م، وكانت الإمامة دولا بين القبائل، وكانت العاصمة تنتقل بين المدن الداخلية وأهمها نزوى و رستاق. انظر كتاب الديباغ، م. س. ج ٢، ص ١٣٤، ومحمد أبو زهرة، المذاهب الإسلامية، ص ٨١. وانظر حديثاً مستفيضاً عن الإباضية في كتاب بريطانيا والخليج العربي، لجون كيلي، ج ١، ص ١٤-١٧ (المترجم).

(٥) القرامطة حركة دينية سياسية منقرضة، تنسب إلى حمدان قرمط، من دعاة الإسماعيلية، ظهر في العراق نحو ٢٥٨هـ/٨٧١م، من أتباعه زكرويه، وأبو سعيد الجنابي وابنه أبو طاهر، الذي يقال إنه اختط مدينة الأحساء. انتشر القرامطة في البحرين واليمن، واستولوا على مكة المكرمة ٣١٧هـ/٩٣٠م، ونقلوا منها الحجر الأسود، ثم رده بعد اثنتين وعشرين سنة، انتزعوا دمشق من الفاطميين سنة ٩٧٠م، وزحفوا إلى مصر فهزمهم المعز الفاطمي ٣٦٢هـ/٩٧٢م. قضى عليهم الأمراء العيونيون في البحرين ١٠٢٧م، فانقرضوا (المترجم).



الشكل ٢. التقسيمات السياسية للشرق الأوسط

الطبقة الحكيمة، والأسرة المالكة، وهو مذهب لم يكذب يتجاوز حدود اليمن، وربما يكون الزيديون أنفسهم أقلية في اليمن. ويختلف الأمر بالنسبة إلى الاتجاه الثاني: فالدعوة الوهابية؛ حركة إصلاحية، استوحيت مبادئها من أكثر المذاهب السنية تمسكاً؛ الحنبلية التي تقوم على عدم التهاون في أمور العقيدة، وتدعو إلى نبذ المحرمات، وقد انتشرت خارج الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر، وكان أتباعها حيثنذ في ذروة قوتهم. أما في القرن العشرين فقد اقتصر الوهابية على نجد، وما تزال الحركة حتى الآن مدعومة سياسياً من الأسرة الحاكمة، ويقوم الحكم على مبادئها الإصلاحية. إن الدعوة الوهابية التي يعد الإخوان نموذجها الأعلى، وحدت القسم الأكبر من الجزيرة العربية تحت لواء أسرة آل سعود. ويسمى أتباعها «الموحّدون»، ويعدون أنفسهم أصحاب المسلمين عقيدة. وتشكل حتى اليوم كتائب المؤمنين، القوة الكبرى للمملكة^(١).

التقسيمات السياسية

أجج سقوط الدولة العثمانية من جديد فاعلية النزاعات القبلية والأسرية والطائفية القديمة [٢٠]، في الجزيرة العربية في القرن العشرين، وجعلها مقسمة إلى عدد من الكيانات السياسية المتنافرة والمتنافسة.

إن منطق الوقائع الاقتصادية الحاسم-اكتشاف البترول- شجع نزعة الاستقلال، التي بدأت تفرض نفسها، كما يشهد بذلك مثال اليمن أو الكويت. إن مفهوم «الحدود» بالمعنى الغربي يعد في الجزيرة العربية مفهوماً جديداً، ولكنه غداً مفهوماً ذا ضرورة ملحة.

تنقسم الجزيرة العربية اليوم^(٢) سياسياً إلى مملكتين عربيتين، وعدد كبير من السلطنات، والإمارات، أو المشيخات، التي تخضع للنفوذ البريطاني المباشر وغير المباشر. المملكتان هما: المملكة العربية السعودية، ومساحتها ٢ إلى ٤, ٢ مليون كم مربع، واليمن التي تبلغ مساحتها ١٢٠ إلى ١٩٥ ألف كم مربع. أما العربية التي أسميتها تسهيلاً «بريطانية»، فإنها تضم كيانات متعددة ذات نظم مختلفة كل

(١) الدعوة الوهابية، دعوة إصلاحية دعمتها الأسرة السعودية المالكة سياسياً وعسكرياً من أجل إعلاء كلمة الله. (الترجم).

(٢) أي في عام ١٩٥٨ م سنة تأليف الكتاب.

الاختلاف: مستعمرة عدن، ومحميات عدن (تضم حضرموت) وتبلغ مساحتها ٢٩٠ ألف كم مربع على الأقل؛ وسلطنة مسقط وعمان، ومساحتها ٢٠٠ إلى ٢٥٠ ألف كم مربع وهي مستقلة استقلالاً نظرياً، ولكنها تخضع عملياً للحماية البريطانية؛ والإمارات ذات المساحات المختلفة، والمسماة «الدول المحمية»، وهي: إمارات ساحل القراصنة السبع^(١) حيث يقسم سبعة من الشيوخ مساحة ٤٠ إلى ٨٠ ألف كم مربع، وإمارة شبه جزيرة قطر، ومساحتها ٢٠ ألف كم مربع، وإمارة الكويت، ومساحتها ٣٠ ألف كم مربع، وأرخبيل الجزر البحرينية، ومساحتها ٥٥١ كيلو متراً مربعاً.

وتكتمل هذه اللوحة الفسيفسائية بالمنطقتين المحايدتين بين المملكة العربية السعودية والعراق من جانب، والمملكة العربية السعودية والكويت من جانب آخر. ويقتسم البلدان الأخيران السيادة على المناطق المذكورة الخالية من السكان المقيمين. ونجد بعض الجزر التابعة لهذه الكيانات نذكر منها: في البحر الأحمر، جزر فرسان التابعة للمملكة العربية السعودية، وكرمان وبريم التابعتين للمستعمرة البريطانية في عدن، وفي المحيط الهندي، جزيرة سقطرة التابعة لإحدى سلطنات عدن المستقلة؛ وجزر كوريا موريا^(٢) التابعة للمستعمرة، وجزيرة مصيرة الواقعة على شاطئ عمان الجنوبي، وفيها قاعدة عسكرية بريطانية كانت في الماضي ذات أهمية بالغة. [٢١] وقبل أن تؤول الجزيرة العربية إلى حالة التجزئة الراهنة، كاد أحد أمراء أواسط نجد أن يوحد الجزيرة العربية كلها تحت لوائه: إنه عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، الذي اشتهر عالمياً باسم ابن سعود. لقد منعت حنكته السياسية من مهاجمة عدد من خصومه الأشداء، مثل اليمنيين، لقد كان يعلم أنه يستطيع قهرهم، ولكنه لن يتمكن من فرض سيطرته عليهم. ومنعه الوجود البريطاني من أن يضم إلى مملكته الإمارات الصغيرة على الخليج العربي، التي يمتهن أهلها الاتجار بالمنوعات وصيد اللؤلؤ. وعلى الرغم من ذلك، استطاع ابن سعود في ربع قرن من الزمن أن ييسط سلطانه على مملكة مترامية الأطراف، ولم يستعص عليه إلا بعض مراكز القوى الصغيرة والمنيع. إن الوضع الحالي للجزيرة العربية هو نتيجة لما قام به ابن سعود من أعمال مجيدة.

(٢) تعرف حالياً بجزر: الحلانيات. (المنيّف).

(١) انظر تعليقنا على هذه التسمية في ص ٤٥.

[٢٢] الفصل الثاني

مملكتان تقومان على أساس ديني^(١)

تقوم في الجزيرة العربية مملكتان على أساس ديني، تتفاوتان مساحة، ويكاد عدد السكان يكون متقارباً.

تشغل أولاهما، : المملكة العربية السعودية مساحة تقارب ثلاثة أرباع-ويزعم بعضهم أنها أربعة أخماس- شبه القارة العربية. يحدها من الشمال العراق والأردن، ومن الغرب البحر الأحمر الذي يفصلها عن مصر والسودان وإريتريا، ومن الجنوب اليمن، ومحمية عدن البريطانية، ومن الشرق أخيراً عُمان، والخليج العربي، والإمارات الصغيرة التي تخضع للحماية البريطانية. وتسعى المملكة العربية السعودية إلى تعميق كل ما يوثق صلاتها بالجزيرة العربية عموماً، لأن طموحها التاريخي هو توحيدها كلها.

وتبسط المملكة العربية السعودية بحكم سيطرتها على الحجاز سلطتها على الأماكن المقدسة لأربع مئة مليون إنسان. ويولّي مئات الملايين من المسلمين المؤمنين وجوههم خمس مرات كل يوم في صلواتهم نحو مكة المكرمة ليدكروا الله، وفي كل سنة يؤم تلك الأماكن مئات الألوف من المؤمنين لأداء فريضة الحج في مكة المكرمة، وزيارة المدينة المنورة، حيث عاش النبي محمد ﷺ، ونشر دعوته. إن سدس البشرية على الأقل يتخذ من الحجاز الذي تلفحه الشمس مركزاً دينياً وروحياً، باركه نبي ثالث الأديان التوحيدية الكبرى.

(١) في الأصل استخدم المؤلف مصطلح تيوقراطية *Théocratique*، ومعنى المصطلح حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين، وهذا مصطلح غربي لا نستطيع استخدامه لوصف الملكتين الإسلاميتين اللتين يتحدث عنهما المؤلف لذلك استخدمنا في ترجمته ما أثبتناه أعلاه. وقد ترجم المصطلح في ترجمة عام ١٩٦٠ بمالك الحق الإلهي وهذا غير مناسب. وقد استخدم المؤلف في كثير من الأماكن تسمية الإمبراطورية واستبدلت بها تسمية المملكة لأنها أكثر مناسبة (المترجم).

وفي الجانب الآخر من الجزيرة العربية، يمتد الساحل الشرقي على طول الخليج العربي، ويمكن تسميته ساحل البترول؛ لأن الكويت، المحمية البريطانية، والأحساء المقاطعة السعودية تضمان عدداً من أغزر الحقول البترولية في العالم وأوسعها. وفي الأحساء السعودية [٢٣] يوجد أكبر احتياطي بترولي معروف في العالم داخل بلد واحد. والاكتشافات مستمرة. إن المنطقة الواقعة بين شبه جزيرة قطر وقمة الخليج العربي، بصرف النظر عن الحدود، تشكل أغنى المناطق البترولية في العالم. لقد تحولت في أقل من عشر سنوات، الكويت والأحساء من منطقتين صحراويتين تنتشر فيهما سبخ الملح، إلى منطقتين صناعيتين. وتنتشر فيها اليوم المنشآت المقامة على آبار البترول، وأنابيبه، ومحطات الضخ، والتخزين، والأبراج الفضية للمصافي وكراتها؛ أما في الليل فيتراقص في الصحراء اللهب البرتقالي المرتفع، المنبعث من المحارق التي تستخدم للتخلص من الغاز السام، وكأنه النار البنغالية الرائعة. لقد نشأت حول آبار البترول قيد الاستثمار مدن صغيرة حديثة، مزودة بكل كماليات الحضارة التقنية الأمريكية. لقد فقد دليل القافلة البدوي، وجمله القديم المخلص مكانتهما، واقتصر استخدامهما على الأعمال البسيطة، وحلت محلهما الشاحنات والجرارات الضخمة التي صممت للصحراء خصيصاً. وأصبحت محطات القوافل القديمة اليوم محطات بنزين، وورش لتصليح السيارات، وتعلم سكان الصحراء استخدام المفتاح الإنجليزي، وبيع البنزين الممتاز بالمفرق.

وبين هاتين المنطقتين المتساويتين في الأهمية، الحجاز المقدس، والأحساء النفطي، تقع نجد بلد آل سعود، وتنتشر فيها الهضاب الصخرية الفسيحة، تتخللها الأودية السحيقة الجافة، وتوشىها الواحات. يحدها من الشمال والجنوب صحراء النفود الكبرى، وصحراء الربع الخالي؛ ومن الغرب والشرق كثبان النفود الصغرى، والدهناء. لذلك تعد عالية نجد مخزن البداوة^(١).

(١) غير صحيح لأن البداوة في نجد منتشرة في أطراف كل قرية، وتحفظ كل قبيلة بموارد مياهها ومراعي أنعامها، ولا تقتصر على جهة محددة.

أما المنطقة الرابعة المهمة في هذه المملكة المترامية الأطراف فهي عسير، الواقعة في الجنوب الغربي، وهي تشبه اليمن المجاور في طبيعتها، وفي خصوبة أراضيها العالية، التي تسقط فيها كميات كبيرة من الأمطار. إنها قسم من بلاد العرب السعيدة، القديمة، الأسطورية. وتكتمل لوحة الفسيفساء السعودية بمناطق أخرى أقل اتساعاً، تسمى [٢٤] ملحقات نجد. منها ما يقع في الشمال، مثل الجوف، والقصيم، وبلاد شمر، ومنها في الجنوب الغربي، ويشكل القسم الأكبر من نجران. وتأتي أخيراً صحراء الجنوب العربي، الربع الخالي، التي تعد جزءاً لا يتجزأ من المملكة العربية السعودية.

لقد استطاع عبد العزيز آل سعود أن يحول تلك المناطق، من مناطق متفرقة، ومن مناطق نفوذ غير واضحة المعالم للقبائل البدوية، ومن محطات تجارية، وواحات متعبة، تعيش مستقلة، إن لم نقل متنازعة، حول تلك المناطق في أقل من خمسة وعشرين عاماً، إلى مملكة مركزية متماسكة منيعة. ناهيك عن أن المملكة العربية السعودية مدعوة لتؤدي دوراً أساسياً في السياسة الدولية، وهي تقوم بذلك على الرغم مما قد يبدو لنا تأخراً مقلقاً في المجالين الاجتماعي والاقتصادي.

يقدر عدد سكان المملكة العربية السعودية بـ ٥ إلى ٦ مليون نسمة، أي ما يقارب نصف العدد الإجمالي لسكان الجزيرة العربية. لم يجر في المملكة أي إحصاء سكاني، ولكن هناك اتفاق على تقدير نسبة البدو بثلاث السكان على الأقل. إن هذه الخصوصية الاجتماعية من أبرز الظواهر الاجتماعية في المملكة العربية السعودية، وفي الجزيرة العربية كلها. مازالت المملكة العربية السعودية حتى يوم الناس هذا موطن البداوة الخالصة، شأنها شأن مناطق شاسعة من الصحراء الإفريقية. إلا أنه يبدو على الرغم من ذلك أن البداوة الخالصة آيلة إلى الانقراض، بسبب ما تتعرض له من تهديد الآلة. إن إحدى نتائج الحضارة الصناعية في القرن العشرين ستكون على ما يبدو انقراض حياة البداوة الخالصة، التي بدأت منذ زمن تشهد انحساراً كبيراً. وعلى الرغم من ذلك فإن التقاليد والأعراف والعادات البدوية لا تتي تؤثر تأثيراً فاعلاً في الحياة الحضرية؛ لأنها تمثل حقبة طويلة جداً من تاريخ هذا الشعب، وهذه البلاد.

إن الدين يشكل مع الحياة البدوية الخالصة، ظاهرة اجتماعية مهمة في المملكة العربية السعودية. إن ٥ أو ٦ ملايين سعودي يتبعون المذهب السني، باستثناء ٦٠ ألفاً من الشيعة في الأحساء. ومن بين المذاهب الإسلامية الأربعة، يسود المذهب الحنبلي، بفضل الحنابلة الجدد، وهايي نجد؛ وفي عسير يسود المذهب الشافعي، وفي الحجاز المذهب المالكي^(١). أما المذهب [٢٥] الإسلامي الرابع، الحنفية، فلا يكاد يوجد إلا في موانئ البحر الأحمر، لدى عدة آلاف من الأفراد جلهم من الأجانب. لم يكن الإسلام، كما لاحظ ذلك بعض الرحالة، متمكناً على الدوام في قلوب القبائل الداخلية؛ إذ لاحظ أولئك الرحالة استمرارية وجود عدد من العادات الوثنية، وخصوصاً عند الأطراف الشمالية للصحراء الجنوبية الكبرى. ولكن هؤلاء البدو يظلون مسلمين باعتبار أنهم يقرون بوحداية الله، وبالرسالة الموحى بها إلى النبي محمد ﷺ.

لقد تم تجنيد أغلب الإخوان المشهورين بين البدو، ونشأت بينهم أخوة هي أكثر من حركة دينية. فهم جيش يخلص للملك كل الإخلاص، ينتشرون في أكثر من مئة هجرة حضرية، تتركز أساساً في نجد. لقد كان الإخوان جناح المشاة في جيش ابن سعود الذي وحد المملكة. وهامهم اليوم، وبعد غياب طويل، ما زالوا سنداً قوياً للمملكة العربية السعودية التي تقوم على أساس ديني.

اليمن

اليمن مملكة تقوم على أساس ديني أيضاً، ولكنها مملكة من نوع آخر، فهي أكثر شمولية من سابقتها، وتقع في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية، ويسود فيها مفهوم الإمامة الذي هو خصوصية يمنية. لم تُرسم حدودها في الشمال مع المملكة العربية السعودية^(٢)، ولا في الجنوب مع محمية عدن^(٣) البريطانية. والحدود الوحيدة

(١) الصحيح أن في الحجاز المذاهب الأربعة، والسيادة فيه للمذهب الشافعي، مع أن المذهب الحنفي كان مذهب الدولة العثمانية وكذلك الأشراف فيما بعد (المنيّف).

(٢) لقد تم توحيد اليمنين حتى غدواً يميناً واحداً تحت مسمى الجمهورية اليمنية عام ١٩٩٦م (المنيّف). كما تم ترسيم الحدود بين المملكة العربية السعودية واليمن بموجب اتفاقية وقع عليها الطرفان، أثبتت اتفاقية الطائف عام ١٩٧٣م، وجعلتها نافذة.

(٣) بل رسمت في زمن المؤلف في اتفاقية الطائف الشهيرة وكانت مدة الترسيم ٥٠ سنة، وبعد انتهائها، أعيد التفاوض حولها ثم تمّ ترسيم الحدود مؤخراً في احتفال مهيب وكان ذلك في عام ١٤٢١ هـ (المنيّف).

الثابتة هي الساحل الغربي على شاطئ البحر الأحمر. أما الحدود الشرقية فتتلاشى في الربع الخالي، في منطقة من الرمال المتحركة، التي تسمى البحر السافي^(١).

إن عدم وضوح الحدود، وخصوصاً في الجنوب الشرقي حيث تتداخل الإمامة مع محمية عدن، يعدُّ مصدرًا لنزاع يعود إلى أربعين عاماً، ويتجدد من وقت إلى آخر.

وليس من الممكن في مثل هذه الظروف تقديم رقم دقيق عن مساحة اليمن. ويذكر منشور ذو هدف دعائي خالص، وزعه ممثل اليمن في الأمم المتحدة عام ١٩٤٧م، أن مساحة اليمن ١٢٠ ألف كم مربع. وتذكر مصادر أخرى، رصينة كل الرصانة، رقماً يتراوح بين ٦٠ إلى ١٩٥ ألف كم مربع. وأعتقد [٢٦] أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار القسم الصحراوي من البلد فإنه يمكن اعتماد رقم ١٠٠ ألف كم مربع مساحة « للأراضي الصالحة ».

نجد في اليمن، كما هي الحال في المكسيك، ثلاث مناطق طبيعية: الأراضي المنخفضة في تهامة، وهي حارة وغير صالحة، وتقع بمحاذاة البحر الأحمر، بعرض لا يزيد عن ٥٠ كيلومتراً؛ والأراضي العالية، وهي منطقة من الهضاب المرتفعة، وفيها قمم يتجاوز ارتفاعها ٣٥٠٠م؛ والأرضي المتوسطة، وهي الهضبة الشرقية، والتي تنخفض انخفاضاً شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الصحراء.

وتهامة منطقة شبه صحراوية، تضم بعض المساحات الخصبة جداً، وترتبط الزراعات فيها بتوفر المياه الجوفية. والمدينة الرئيسية الوحيدة في هذه المنطقة هي الحديدة على البحر الأحمر، وهي مقر حاكم تهامة، الأمير البدر ولي العهد^(٢).

(١) يستمد هذا القسم من الصحراء اسمه من الملك السافي الذي انطلق على رأس جيشه من بلاد سبأ، وواديان ورأس الغول، وأراد اجتياز هذا القفر، فهلك جيشه. وقد تحدث عنه بالتفصيل فون وريد Von Wrede، ونقلت ذلك جاكلين بيرين في كتابها اكتشاف جزيرة العرب، ص ٣٩٦-٣٩٧ (المترجم).

(٢) وقع انقلاب ضد الإمام في اليمن في ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م.

ويقع ميناء **المُخا** القديم في أقصى الجنوب، وسمي باسمه أول صنف من أصناف البن^(١) في العالم، وقد ظل خلال فترة طويلة مهجوراً. وفي عام ١٩٥٥م أوكلت الحكومة اليمنية أمر ترميمه لشركة باتينيول الفرنسية *la Société des Batignolles*، التي سبق أن قامت بنشاط ملحوظ في جيبوتي، فبنت مركزاً تجارياً، ونظفت الممرات المائية. وفي الآونة الأخيرة، طلب الإمام من الروس بناء ميناء في شمال الحديدة. لقد كان الإمام في كل ذلك يحاول الإفلات من ضرورة المرور عبر عدن، التي يستعمرها البريطانيون. وفي موازاة تهامة تشكل منطقة الهضاب المرتفعة سلسلة يتراوح عرضها بين ١٠٠ إلى ١٥٠ كيلومتراً، تهطل فيها الأمطار بغزارة، وهي أكثر مناطق البلاد خصوبة، وأكثرها سكاناً في المدن والريف على حد سواء؛ ويعود ذلك إلى مناخها المعتدل والصحي. وتوجد في هذه المنطقة المدن الكبرى؛ منها العاصمة القديمة **صنعاء**، والعاصمة الحالية **تعز**، و**صعدة**، مهد الأسرة الزيدية، وزبيد وطن الجبر، وذمار، وإب... وفي هذه المدن ازدهرت حضارة جنوب غرب الجزيرة العربية، التي ما تزال الصروح المعمارية الفريدة شاهداً على عظمتها.

أما المنطقة الطبيعية الثالثة والأخيرة، فتتكون من هضبة واسعة، توازي تهامة والسلسلة الجبلية. وهي تبدأ على بعد حوالي ٢٥٠ كيلومتراً [٢٧] من البحر الأحمر، وعلى ارتفاع يزيد على ٢٠٠٠ متر، ثم تنحدر رويداً رويداً نحو الشرق، حتى تتلاشى

(١) وصفت كلودي فايان في كتابها: كنت طبيعية في اليمن (الترجمة العربية، ص ٢٣١) شجرة البن فقالت: «كانت زيارتنا في آخر كانون الثاني. لم يكن ثمة أزهار... ولكن الأشجار كانت محملة بشمار متفاوت في نضجها، بعضها حمراء نضرة... وبعضها خضراء... وهي في حجم حبة الكرز وشكلها... وإذا طال بها الوقت أصبحت سمراء، ويدخلها نواة مزدوجة حبتان جنباً إلى جنب. وشجرة البن تثمر بعد أربع سنين وتستمر هكذا ثلاثين عاماً... وحسب عمر الشجرة يكون التنوع ويكون الموسم مشجعاً أو غير مشجع. ومتوسط إنتاج الشجرة في السنة تسعين كيلو من الحبوب الجافة غير المفصولة عن قشرتها». واسم البن اللاتيني (كافيه) مأخوذ من اسم البلدة التي يقال إن الراعي اكتشف قربها شجرة البن ولاحظ أثر ثمارها على أغنامه، واسم البلدة «كافا». وعن طريق اليمن نقلت شجرة البن إلى جزيرة «جاوة» في إندونيسيا، ثم إلى أمستردام، ومنها إلى أمريكا الجنوبية وغيرها (المترجم).

في رمال الربع الخالي . ويسمح مناخها المعتدل بزراعة كل ما ينمو في أوروبا^(١) .

وأخر المدن اليمنية قبل الوصول إلى الصحراء هي مأرب، أكثر الضواحي شهرة في المنطقة، وربما في العربية الجنوبية كلها. لقد اشتهرت بسدها العظيم المهدم، الذي يعود تاريخه إلى آلاف السنين، وببقايا مدينة قديمة مطمورة، يُعتقد أنها كانت عاصمة ملكة سبأ. في عام ١٩٥١م حصل أحد الأمريكيين، الذي ادعى أنه عالم آثار، واسمه ويندل فيليبس^(٢) Wendell Phillips على رخصة للتنقيب عن الآثار، ولكنه سرعان ما وجد نفسه مضطراً إلى التوقف بسبب تهديدات السكان والسلطات^(٣) . وإذا صدقنا ما نُشر من معلومات، فإن الاكتشافات الأولى تدل على أن تاريخ بناء المدينة يعود إلى بداية الألف الأول قبل الميلاد؛ إلا أن الحفريات فيما لو توبعت يمكن لها أن تظهر أن زمن بناء المدينة هو أقدم من ذلك بكثير^(٤) .

وكان أول أوروبي زار مأرب في عام ١٨٤٣م فرنسياً، اسمه آرنو^(٥) Arnaud، وتلاه عام ١٨٦٩م فرنسي آخر هو عالم الآثار جوزيف هاليفي^(٦) Joseph Halévy

(١) أندري غورلان : André GOURLIN « اليمن المحرمة»، عوالم الشرق، رقم ٢-٣، مارس-أبريل «آذار- نيسان» ١٩٥١م -كلودي فايان : Claudie FAYEIN كنت طبيبة في اليمن، دار نشر جويار، باريس، ١٩٥٥م .
(٢) ألف فيليبس هذا كتاباً بعنوان: كنوز مدينة بلقيس، ترجمه عمر الديراوي، بيروت ١٩٦١م؛ وتحدث فيه عن مدينة مأرب بالتفصيل . انظر كتاب الدباغ المذكور سابقاً، ج ١، ص ٢٩٦-٢٩٧(المترجم).
(٣) تخلى ويندل فيليبس عن علم الآثار عندما نجح في الحصول من سلطان مسقط على رخصة للتنقيب عن البترول في ظفار.

(٤) ويندل فيليبس: قتيان و سبأ، غولانس، لندن، ١٩٥٦م .

(٥) ترك آرنو TH. J. Arnaud كتاباً بعنوان: حكاية رحلة إلى مأرب(سبأ) في العربية الجنوبية في عام ١٨٤٣م، مسبوقه بتبنيه كتبه موهل J. Mohl، في المجلة الآسيوية، السلسلة الرابعة، العدد ٥، باريس، ١٨٤٥م، ص ٢٠٨-٢٤٥ و ٣٠٩-٤٣٥ . وكان آرنو في بداية أمره صيدلياً في واحدة من فرقتي الطليعة اللتين أرسلهما محمد علي باشا مصر إلى جدة عام ١٨٣٥م للاشتراك في الحملة على عسير . انظر الترجمة العربية لكتاب جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدرى قلججي، تقديم الشيخ حمد الجاسر، رحمه الله، دار الكاتب العربي، بيروت، د. د. ت. ، ص ٣٦٢-٣٧٩(المترجم).

(٦) انظر: جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، م. س. ، ص ٣٦٠(المترجم).

الذي عاد وفي جعبته أقاصيص مشوقة. وفي عام ١٩٥٢م، زارت السيدة كلودي فايان مدينة مأرب، وسدها، وآثارها، ووصفت ذلك كله في كتابها القيم^(١).

يقدر عدد سكان اليمن بخمسة ملايين نسمة^(٢)، أكثرهم من الحضرة. أما القبائل البدوية النادرة التي نجدها في الشمال الشرقي والشرق، فليست حياتها حياة بدو خالصة. إن اليمن، كما تشهد بذلك حضارته، بلد استقرار منذ أقدم الأزمان، على عكس وسط الجزيرة العربية. وإذا غامرنا بإجراء مقارنة مع الجزائر، فإن جبال اليمن بالنسبة إلى بلاد العرب الصحراوية، مثل بلاد القبائل بالنسبة إلى الصحراء الكبرى [٢٨] ويتنوع السكان كما يتنوع المناخ، والمناطق الطبيعية. فسهل تهامة الساحلي كان فيما مضى مسكناً لقبائل الزرائق^(٣)، المحاربة، ذات النزعة الاستقلالية، والتي تحدث جوزيف كيسل^(٤) Joseph Kessel عما حلَّ بها في روايته ثروة عريضة Fortune Carrée.

لقد ظلت هذه المنطقة، ذات المناخ الرديء خالية من السكان تقريباً بعد أن سيطر سادة اليمن على تهامة. وباستثناء المدن فإن السهول يسكنها الأفارقة السود حصراً، وهم من سلالة الرقيق في القديم، أو من الخلاسين. وخضع من بقي من الزرائق لسلطان المنتصرين. إن عدد السكان، كما رأينا، قليل في تهامة الشبه صحراوية، ويعيش أغلب اليمنيين في الهضاب العالية، وعلى الهضبة الشرقية. وكلما ابتعدنا عن الساحل نحو المرتفعات يصبح لون البشرة أكثر بياضاً، والقسمات

(١) انظر: كنت طبيعية في اليمن، مذكور سابقاً.

(٢) لقد تجاوز عدد سكان اليمن حالياً هذا العدد بمعدل الضعف (المنيف).

(٣) من أشد القبائل اليمنية التهامة بأساً، وأكثرها عدداً، وأكبرها قوة. ولم تستطع الدولة العثمانية مدة بقائها في اليمن إخضاعها. وأعظم مدنها بيت الفقيه. وقد وصفهم الرحالة الألماني (هانز هولفريتز) بقوله: «وهذا القسم من منطقة تهامة مأهول بقبيلة الزرائق، السمرة الوجوه والبشرة، وتمتد بلادهم على طول الساحل إلى بيت الفقيه وزبيد. وهم قوم مضيافون، سليمو الطوية، ولا يحملون للأجانب أية ضغينة. ويحبون بلادهم الفقيرة، وغير الصحية، ويدافعون عنها بصرارة وعزم». عن كتاب الديباغ، مذكور سابقاً، ج ١، ص ٢٥٣ (الترجم).

(٤) روايتي وصحفي فرنسي، ولد عام ١٨٩٨م، وتوفي عام ١٩٧٩م، اشتهر بتحقيقاته الصحفية التي انعكست في رواياته فتحدث عن أخوة الرجولة في الحرب في رواياته «الطاقم ١٩٢٤م» و«جند الظلام ١٩٥٠م»، وفي المغامرات «ثروة عريضة» أصبح في عام ١٩٦٢م عضواً في الأكاديمية الفرنسية (الترجم).

أكثر نعومة، ويختفي العنصر الإفريقي. وتصبح البشرة السوداء التي وجدناها عند سكان الساحل بيضاء ناصعة عند الأسياد الأشراف-الذين يُشتهر أنهم من سلالة النبي ﷺ - وعند عدد كبير من سكان المدن. وتعيش في منطقة مأرب بعض القبائل من «البدو الزرق»^(١)، كما هو الحال في محمية عدن، وهذا يذكر بالموريسكيين وبالطوارق في الصحراء الفرنسية^(٢).

إن الفوارق الدينية في اليمن هي أكثر بروزاً من الفوارق العرقية أو من المظهر الخارجي. ويبدو أن أتباع المذهب الشافعي من السنة هم الأكثر عدداً. ومع ذلك فالزيديون، وهم فرقة شيعية يمنية حصراً، يسكون بزمام السلطات كلها. فالقادة، والحكام، وكبار الموظفين، والأسرة المالكة على وجه الخصوص، ينتمون إلى الزيدية. ولا تضم الفرقة الإسلامية الثالثة إلا بضعة آلاف من الأشخاص؛ إنهم الإسماعيليون (الشيعية)، الذين لا يختلفون في واقع الأمر كثيراً عن الزيديين الذين يحاولون استمالتهم، ويحققون في ذلك نجاحاً متفاوتاً.

لقد كان في اليمن حتى عام ١٩٥٠م أقلية من اليهود، عددها ٥٠ ألف نسمة؛ وكانت طريقة حياتهم الخاصة تجعل وضعهم يشبه وضع طبقة المنبوذين في الهند.

إنهم والمسلمين ينحدرون من أصل واحد، ولكن اختلاف ديانتهم كان [٢٩] كافياً لعزلهم عن المجتمع^(٣). لقد هاجروا بكثافة إلى فلسطين المحتلة بعد إنشاء الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨م، وشكلوا للمجتمع إضافة ذات قيمة كبيرة^(٤).

(١) ذكر الرحالة الألماني هانز هولفريتز في كتابه: اليمن من الباب الخلفي (الترجمة العربية) المكتب التجاري، بيروت، د.ت. ص ١٠٥-١٠٦، أنهم بنو جروي، وقال: إنهم يمتازون ببشرتهم السوداء التي تخالطها بعض الزرق، ويسكنون في مأرب. انظر كتاب الدباغ، مذكور سابقاً، ج ١، ص ٢٧٨-٢٧٩ (الترجم).

(٢) ليس هذا، كما سنرى، هو التقارب الوحيد الذي يفرض نفسه مع شمال إفريقيا والصحراء.

(٣) البروفيسور ماسينيون Massignon يسميهم محقاً «اليهود العرب في اليمن» (دليل العالم الإسلامي، ١٩٥٤م).

(٤) انظر بحثي: «اندماج اليهود اليمنيين في إسرائيل»، في حولية العلوم الاجتماعية L'Année sociologique 1953-54، المطبوعات الجامعية الفرنسية، باريس، ١٩٥٦م.

[٣٠] الفصل الثالث

العربية البريطانية

ينبغي علي المسارعة إلى إيضاح أن تسمية العربية البريطانية هي تسمية غير مناسبة، شأنها في ذلك شأن « ماليزيا البريطانية »؛ إنه مصطلح نوعي مريح أستخدمه لوصف الأراضي التي لا يشك أحد في أن السلطة البريطانية تسيطر فيها على كل شيء. وألح على واقعة مفادها أن بريطانيا العظمى هي الجار الوحيد الفاعل للمملكتين العريبتين، وهذا ما يهمل عادة أو يتجاهل.

في جنوب اليمن والربع الخالي، وعلى امتداد خليج عدن والمحيط الهندي، تفرض بريطانيا سيطرتها على حزام عريض من الأرض تكاد مساحتها تعادل مساحة الجزائر الشمالية (٢٩٠ ألف كم مربع). إن محمية عدن، التي تضم المستعمرة الصغيرة التي أكسبتها اسمها، تمتد من مضيق باب المندب (باب جهنم)، وحتى رأس ضربيات علي، على حدود ظفار، التابعة لسلطنة عُمان. وتنقسم محمية عدن إدارياً إلى قسمين غير متساويين، يتناسبان إجمالاً مع الفوارق القبلية، والتاريخية، والجغرافية^(١)

أولاهما: المحمية الغربية وعدد سكانها ٤٠٠ ألف نسمة، يسكنون مساحة قدرها ١٠٠ ألف كم مربع، ولها ارتباط وثيق « بالنواحي التسع » التي فصلت عن اليمن في القرن الثامن عشر. تشبه في تضاريسها وسكانها الأراضي اليمنية [٣١] المجاورة. وتضم ثلاث مناطق مناخية: ساحل شبه الصحراوي، منطقة جبلية تُزرع على شكل مدرجات، وهضاب مرتفعة تعلوها القمم، تنحدر نحو الداخل الشمالي الشرقي في الربع الخالي. أما السكان الذين اختلطوا بالأفارقة السود على الساحل،

(١) انظر: التقارير الاستعمارية، عدن ١٩٥١-٥٢ و ١٩٥٣-٥٤، Her Majesty's Stationery Office، لندن،

١٩٥٣ و ١٩٥٦م (بالتالي)؛

-دوريان أنغرامس Doreen INGRAMS (ص ٣١)

فيقتربون من النوع اليمني-المتوسطي في المرتفعات. وهم يتمون جميعاً إلى المذهب الشافعي، وأغلبهم من الحضرة. أما البدو الخُلص فنجدهم جميعاً في الشمال الشرقي، وفي المحمية الشرقية على وجه الخصوص. وإنه لمن الصحيح القول: إن البدو، الأحرار الرُّحل لم يكثرثوا يوماً بالحدود التي وضعتها الإدارة الأجنبية، طالما أنهم يستطيعون تخطيها.

على الرغم من أن ثاني المنطقتين: المحمية الشرقية أكثر اتساعاً، فإنها أقل سكاناً. تغطي مساحتها ١٨٠ إلى ٢٠٠ ألف كم مربع، يسكنها ٣٥٠ ألف نسمة. وهي مؤلفة من حضرموت، البلد الخيالي ببخوره وتوابله، ومن المهرة، التي تتبعها جزيرة سقطرة^(١). وتشغل الصحراء، والجبال القاحلة التي تتخللها الوديان، القسم الأكبر من المحمية الشرقية. أما المنطقة الساحلية فهي أكثر ضيقاً من تهامة. وتساير السفوح الصخرية لسلسلة جبال ساحلية، ضيقة أيضاً، وتحاذي هضبة كلسية صحراوية يتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ و ١٢٠٠ متر. تشكل هذه الهضبة القاحلة بوادي واسعة جرداء-«الجلول»- تتخللها شبكة معقدة من الأودية العميقة. وأكبر هذه الأودية هو وادي حضرموت، وهو أهم ظاهرة جغرافية في المحمية الشرقية. ويبلغ عرضه ١٠ كم، ويقسم الهضبة الكلسية إلى قسمين، بطول قدره ١٠٠ كم بين الصحراء والبحر. أما الأودية الأخرى فهي ترتبط به، سواء كانت قادمة من المحيط أو من الربع الخالي. والحياة الحضرية ليست ممكنة إلا في أعماق هذه الأودية ذات الانحدارات شبه العامودية.

وإن الظاهرة الجغرافية الأخرى الخاصة بحضرموت تكمن في مدنها التي تنطح السحاب، والتي يعود تاريخها إلى عصر ازدهار البلد في القديم. المكلا، و شحر،

(١) كتبها الهمداني «سقطرى»، والمقدسي «اسقوطرة»؛ وكتبها الدباغ في كتابه، مذكور سابقاً، ج ٢، ص ٨١، سوقطرة SOCOTRA، وقال: إن اسمها تحريف لاسمها القديم «دنيا سوكتادارا DVIPA Sukhatara السنسكريتي»، ومعناه جزيرة الرخاء. وذلك أن التجار كانوا يفسدون إليها من جميع الأنحاء منذ القدم. وقد أنشأ فيها البطالسة جملة مستعمرات يونانية، وكانوا يسمونها «ديو سكوريدا DIOSCORIDA»، وذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان سقطرى (المترجم).

و سيون، و تريم، و شبام^(١) ؛ وهي مدن أدهشت المسافرين، واستهوت، حتى من كانوا يعلمون بوجودها منهم، عندما رأوا في الصحراء المميّنة هذا الفن المعماري الرفيع. لقد كانت هذه المدن مركزاً لتطور حضاري فائق، ولجوانب حياة حضرية عريقة، كانت تعيش جنباً إلى جنب [٣٢] مع جوانب الحياة البدوية وأشكالها. لأنّ قسماً كبيراً من السكان خارج هذه المدن كانوا يعيشون حياة البداوة.

ونلاحظ بجلاء في المدن وعلى الساحل وجود أقليات إفريقية، وعلى وجه الخصوص هندية وملاوية. وهذا العنصر الأخير أدخله الحضارة الذين كانوا منذ القرن السادس الميلادي يهاجرون بانتظام إلى جزر الهند الشرقية، حيث كان بعضهم يتزوج هناك. يختلف بدو حضرموت عن سكان المدن أو عن سكان الجبال في غرب البلاد بقدر ما يختلفون عن بدو الشمال أو عن بدو قلب الجزيرة العربية. إن ذوو بشرة كالحة السواد، دون أن يكون لهم أي خصائص إفريقية، يسيرون نصف عراة، حاسري الرأس؛ ويدهنون بالنيلة، مما يكسبهم مظهراً غريباً من الزرقة القائمة.

والسكان كلهم شافعية سنة، إلا أن البدو الرحّل لا يهتمون كثيراً بالدين، بسبب متاعب الحياة القبلية القاسية، وقوانين الصحراء الصارمة. وما زالت بقايا العبادات الجاهلية متعددة، نذكر منها على وجه الخصوص التقديس الذي تلقاه أضرحة الأولياء.

ويبدو أن التنوع اللغوي في محمية عدن الشرقية واضحاً. فالناس يتكلمون، ناهيك عن العربية التي يصعب فهمها، اللغة الملاوية، والهندوستانية، والسواحلية، في الأسر التي عاشت زمناً طويلاً في إندونيسيا أو في إفريقيا الشرقية. في بلاد المهرة مازال الناس يتحدثون اللهجة العربية الجنوبية القديمة، العربية الأولى. أما في جزيرة سقطرة والجزر المجاورة فإن سكانها البالغين ١٢ ألف نسمة يمتنون الصيد ويسكنون الكهوف، ويتكلمون لهجة خليطة من المهريّة والعربية اليمينية في آن معاً، ولكنها تختلف عنهما. وقد ظلت الجزيرة التي تبلغ مساحتها ٣٥ ألف كم مربع في منأى عن موجات الغزو، أو تيارات المدنية لصعوبة الوصول إليها عموماً، ولاستحالة ذلك عندما تصفر الرياح الموسمية.

(١) قالت جاكلين بيرين في كتابها: اكتشاف جزيرة العرب، م. س. ص ٣٩٥: إن تريم وشبام تلقبان بـ «شيكاجو الصحراء» لما فيهما من منازل تشبه ناطحات السحاب (المترجم).

المستعمرة

إن مساحة مستعمرة عدن لا تزيد عن ٢٠٠ كيلومتر، ولكنها ذات أهمية فائقة لأنها قاعدة لأراضٍ شاسعة. تتألف المستعمرة من ميناء الصيادين القديم الذي أصبح مدينة [٣٣] وميناء ذا صفة دولية، ومن شبه جزيرة صغيرة، ومن حزام من الأراضي الرملية التي تشرف عليها صخور بركانية. ويشكل مجموع ذلك ميناء طبيعياً رائعاً، هو الميناء الوحيد على ساحل الجزيرة العربية الجنوبي كله. وقد احتلتها القوات البريطانية منذ عام ١٨٣٩م وأصبحت مستعمرة تابعة للتاج البريطاني منذ عام ١٩٣٧م. وألحقت بها أيضاً جزيرتا كمران^(١) في البحر الأحمر، وتريم^(٢)، التي تتحكم بمدخل مضيق باب المندب.

أما سكانها الذين كان عددهم في عام ١٩٥٦م يقدر بـ ١٥٠ ألف نسمة، فهم في أغليبتهم من العرب، سكان عدن، أو قدموا من المحمية، ومن اليمن. ويوجد أقليات صغيرة من الهنود، والباكستانيين، والصوماليين. وقد كان غير العرب في عام ١٩٥٠م يشكلون ٢٠٪ من سكان عدن، ولكن نسبتهم تناقصت فيما بعد، ومازال ذلك مستمراً، بسبب هجرة اليمنيين العرب للعمل فيها.

(١) ذكرها ياقوت في معجم البلدان كمران، وكذلك المقدسي في أحسن التقاسيم، ص ١٠٣، ط. ليدن. وذكر الدباغ في كتابه، مذكور سابقاً، ج ١، ص ٢٥٢-٢٥٣ أنها دعيت قمران نسبة إلى قبيلة نزلتها في العصور الخالية، كما نزلت هذه القبيلة جنوبي فلسطين في أوائل الفتح الإسلامي وخلدت اسمها بالخرية المسماة باسمها والواقعة على الساحل الغربي الشمالي من البحر الميت. وهي بطون من «جرم» من «طيء» من العرب القحطانية (المترجم).

(٢) ذكر الدباغ في كتابه، مذكور سابقاً، ج ٢، ص ٢٣، أن جزيرة تريم تقع على مسيرة ٢٠٠ ميل جنوب جزيرة قمران، وأن الجغرافيين العرب يسمونها «ميون» أو «ميوم» نسبة إلى القرية التي يقيم فيها سكان الجزيرة. والغريسون يعرفونها باسم بريم. تقع في مضيق باب المندب على نحو ١٠٠ ميل غرب عدن، وهي جزيرة بركانية صخرية قاحلة، طولها نحو ٣ أميال، وعرضها نحو ميلين. ومساحتها خمسة أميال مربعة. تقسم باب المندب إلى قسمين المضيق الصغير، يفصلها عن الشاطئ العربي، وعرضه ثلاثة كيلومترات، والمضيق الكبير ويفصلها عن الشاطئ الإفريقي، وعرضه نحو ٢١ كيلومتراً. وقد شيد البريطانيون فيها حصوناً وقلاعاً لتحرس مداخل البحر الأحمر (المترجم).

مسقط وعمان

تقع سلطنة مسقط وعمان في الزاوية الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية، وتتخذ أرضها شكل القمر عندما يكون هلالاً. وتمتد سواحلها من محمية عدن الشرقية إلى ساحل القراصنة، بطول قدره ١٦٠٠ كم من الشواطئ على المحيط الهندي (بحر العرب)، وخليج عمان^(١). ويحدها من الغرب سلطنة مهرة قشعن و سقطرة وإقليم ظفار. وتتصل في الشمال الغربي، بالإمارات الصغيرة على ساحل القراصنة، وتخضع لسيطرتها أيضاً شبه جزيرة مسندم^(٢)، التي تتحكم بمدخل الخليج العربي. وفي الداخل تنتهي السلطنة في الربع الخالي، عند حدود لم تُرسم قط^(٣). تقدر مساحة السلطنة بحوالي ٢١٢ ألف كم مربع^(٤)، يسكنها حوالي ٥٥٠ ألف نسمة^(٥).

وهي مكونة من ساحل ضيق يمتد أمام سلسلة جبلية وعرة، ممتدة في موازاة خليج عُمان: إنها سلسلة الجبل الأخضر التي تبلغ أوج علوها في جبل شام^(٦) Sham

- (١) الصحيح أن سواحل عمان تمتد أكثر من (١٧٠٠) كم ، وتطل علي ثلاثة بحار هي بالترتيب من الشمال إلى الجنوب ، الخليج العربي - ثم خليج عمان الذي يحرس مضيق هرمز ، ثم بحر العرب .
- (٢) تشكل محافظه مسندم الجزء الشمالي من السلطنة وتضم أربع نيابات هي : خصب، بخا، دبا البيعة، مدحا. ويبلغ عدد المدن والقرى التابعة لها ١٧٢ مدينة وقرية. ويطل من المحافظة رأس يسمى رأس مسندم، علي مضيق هرمز، وهذا الجزء ليس كله صالحاً للملاحة البحرية، وإنما الصالح منه فقط يتبع للسلطنة. وقال جون كلي في كتابه: بريطانيا والخليج ١٧٩٥-١٨٧٠م، الترجمة العربية، ج١، ص ٣٢: «تتحكم في مدخل الخليج مجموعة من ثلاث جزر... يسميها الملاحون العرب سلامة وبناتها... وعلى بعد فرسخين أو ثلاثة إلى جنوب مجموعة الجزر يقع رأس مسندم، وهو قمة شبه الجزيرة الجبلية المعروفة برؤوس الجبال منطقة مخيفة هي عبارة عن كتلة مخرسة من الجبال تبدأ في الارتفاع من شاطئ البحر ثم تنشط في نتوءات بعد نتوءات من القمم المشقوقة والمتعرجة...» (المترجم).
- (٣) بل تم ترسيم الحدود بين السلطنة والمملكة العربية السعودية ثم تبعها ترسيم حدودها مع اليمن، ولم يتبق إلا جزء بسيط بينها وبين الإمارات العربية المتحدة خاصة بالقرب من مضيق هرمز.
- (٤) إن آخر تقدير لمساحة سلطنة عمان هو (٣١٤,٠٠٠) كم أي (١٢٠,٠٠٠) ميل مربع.
- (٥) يبلغ عدد سكان السلطنة حالياً (٢,٥) مليون نسمة، منهم نصف مليون وافد.
- (٦) كذا في الأصل ولعل الصواب شبام؛ وهو جبل يقع جنوب غربي صنعاء، ويعد من القمم الشامخة في اليمن، ذكره ياقوت في معجم البلدان فقال: «جبل عظيم فيه شجر وعيون، وهو صعب المرتقى، وفيه غيران وكهوف عظيمة جداً، وحصون عجبية هائلة، وذروته واسعة فيها ضياع كثيرة وكروم ونخيل». انظر كتاب الدباغ، مذكور سابقاً، ج١، ص ٢٧١-١٧٢ (المترجم).

أكثر من ٣٠٠٠ متر. أما في الداخل فينحدر الجبل بالتدرج نحو الصحراء. إن معلوماتنا عن هذه المنطقة هي أقل منها عن بقية مناطق الجزيرة العربية التي لم تكتشف إلا من زمن قريب. [٣٤] ويقع بين مسقط، الميناء والعاصمة، وساحل القراصنة باتجاه الشمال سهل الباطنة^(١) الساحلي الذي يضم واحدة من أجمل غابات النخيل في العالم، ومنطقة من أكثر مناطق الجزيرة العربية خصوبة. أما ظفار التي تقع في أقصى الطرف الآخر من هذا البلد المتسع طولياً، فإنها منطقة قليلة السكان، مازالت أشجار البخور تنبت فيها طبيعياً على تلال واطئة ومسطحة، تتلاشى هي أيضاً في الصحراء الكبرى. وأخر صروح هذه المملكة البحرية هو صرح غوادر^(٢) Gwadar (٨٠٠ كم مربع) في بلوشستان - Balouchistan باكستان- على الساحل الآخر من خليج عُمان، وما زال حتى اليوم يخضع لسُلطان مسقط.

إن سكان الساحل أخلاط كثيرة: من عرب، وبلوشي^(٣)، وفُرس، وأفارقة سود؛ ويبدو أن سكان الجبل الأخضر هم من سكان البلاد الأصليين، العرب

(١) سهول واسعة خصبة يتراوح عرضها من ٢٠-٤٠ ميلاً، تنمو فيها أشجار النخيل والفاكهة كالمango والمانجو والموز وقصب السكر، وتزرع فيها الحبوب والأرز وغيرها. وتعد حدائق النخيل الممتدة من «السيب» على الساحل لمسافة ٣٧ ميلاً أكبر حدائق عُمان وأجملها. عن الدباغ، ج٢، ص ١١٢ (الترجم).

(٢) منطقة تقع على بعد ٢٩٠ ميلاً غربي كراتشي، مساحتها ٣٠٠ ميل مربع: ٢٧٧٧ كم^٢، وسكانها ٥٠٠٠ آلاف نسمة، ودخلت تحت حكم آل بوسعيد في عهد سلطان بن أحمد ١٧٩٢-١٨٠٤م، وفي عام ١٩٥٨م تنازل عنها سلطان مسقط لباكستان بناء على طلب البريطانيين. عن كتاب الدباغ، ج٢، ص ١٢٢-١٢٣. وبلوشستان كتبها الدباغ في المكان المذكور نفسه: بلوجستان. وكتبته كما في الأصل تبعاً لترجم كتاب بريطانيا والخليج العربي، لجون كيللي، ترجمة محمد أمين عبد الله، نشر وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، د.ت.١، ص ٢٣، ٢٦ (الترجم).

(٣) قال أحمد حمود العمري في كتابه: عُمان وشرقي إفريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٠م، ص ١٥: وأكبر الطوائف العمانية غير العربية طائفة البلوش، وقد عاشوا في مدينتي مسقط ومطرح، وعلى طول ساحل الباطنة، وجاءوا من ساحل مكران في بلوشستان وغوادر، الذي ظل جزءاً من عُمان حتى عام ١٩٥٨م، وهناك قبيلة أخرى تسمى بني بلوش، وأفرادها من نسل قوة من الجنود، جُندت في مكران عام ١٧٣٦م، وقد اندمجوا الآن في المجتمع العماني، ويعيشون كقبيلة عربية في الظاهرة (الترجم).

الأوائل . العمانيون جميعاً مسلمون، وتنتمي أغليبيتهم الساحقة إلى فرقة الخوارج الإباضية، التي يرفضها الشيعة أنفسهم. ويتنمي إلى هذه الفرقة التي « خرجت » على جماعة المسلمين المزابيون les Mozabites في الصحراء الشمالية (الجزائر)، والجريريون (سكان جزيرة جربة في تونس)، وسكان زنجبار (إفريقيا الشرقية).

على الرغم من أن سلطنة عُمان ومسقط، كيان غير واضح المعالم، فهي مستقلة نظرياً، إلا أنها فعلياً تحت الحماية بريطانيا العظمى.

ساحل القراصنة^(١)

إذا صعَدنا الخليج العربي من حدود عُمان، فإن الجانب العربي من الخليج بين شبه جزيرة مسندم وقاعدة شبه جزيرة قطر يسمى ساحل القراصنة. ويطلق عليه في بعض الأحيان اسم الساحل المتصالح^(٢). لقد ظلت هذه المنطقة لأمد طويل مكاناً

(١) هذه تسمية غربية، والغربيون يصفون الآخرين بالقرصنة إذا هاجموا سفنهم مهما كانت الدوافع لذلك. ومعروف أن القواسم كانوا يهاجمون سفن أعدائهم لا قرصنة وإنما جهاداً ودفاعاً عن المصالح الوطنية. انظر: بوركهارت، مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة الدكتور عبد الله الصالح العثيمين، الرياض، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص ١٠١-١٠٢؛ واكتشاف جزيرة العرب، م.س.، ص ٣٨٢-٣٨٤ (المترجم). وما أشبه اليوم بالبارحة، إذ كانت اعتداءات البرتغال والإسبان على الأراضي العربية الإسلامية تدعى «استعادة» وحملا «وقائية» ضد «العدو»، أما ردود الفعل الإسلامية الدفاعية والانتقامية فتدعى «قرصنة»، وهي اليوم «إرهاب». انظر تراث الإسلام تصنيف جوزيف شاخ وكليفورد بوزورث، مجموعة من المترجمين والمحققين، عالم المعرفة، الكويت، ط٣، رقم ٢٣٣، ج١، ص ٢٦٦، وقد ناقش قضية القرصنة في دراسة موثقة الدكتور سلطان بن محمد القاسمي (حاكم الشارقة)، ونشرت بالإنجليزية بعنوان «أسطورة القرصنة العربية في الخليج» دحض فيها الباحث تلك المزاعم. عن حواشي كتاب بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، الترجمة العربية، د. عبد الله آدم نصيف، الرياض، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ١٨٥ (المترجم).

(٢) يقول المؤلف إنه يسمى: Côte Truciale الساحل المتصالح، ويقول إن التسمية ليست إلا نقحرة بغيضة للتسمية الإنجليزية Trucial Coast، أو Trucial Oman وترجمها إلى الفرنسية: الساحل المتصالح، أو عُمان المتصالح (المترجم).

يلتقي فيه القراصنة، قبل معاهدة الهدنة العامة التي فرضها البريطانيون في القرن التاسع عشر. إنها حزام من الأرض الصحراوية، موحش جداً بين عُمان وقطر. ولم تُرسم حدوده الداخلية مع الجارة الكبرى، المملكة العربية السعودية^(١). ويقتسم سبعة من الشيوخ السيادة [٣٥] على هذا الساحل الذي تبلغ مساحته ٢٠ ألف كم مربع، يسكنها حوالي ٨٠ ألف نسمة^(٢). ومشيخاتهم هي: كلبا، والشارقة، ورأس الخيمة، وأم القيوين، وعجمان، ودبي، وأبو ظبي، والفجيرة (التي اعترف بها عام ١٩٥٢م). ويتجمع جل السكان، لأنهم في الغالب بحارة، في موانئ الساحل على وجه الخصوص. ومع ذلك يُقدر عدد البدو الرحل بعشرة آلاف. إن واحة البريمي، التي هي موضع خلاف حاد بين المملكة العربية السعودية، وحاكمي مسقط وأبو ظبي اللذين تمثلهما بريطانيا، هي مكان يجتمع فيه بدو المنطقة كلها. وهي أيضاً المكان الوحيد الخصب. ليس ساحل القراصنة سوى امتداد للصحراء الرملية، التي تتخللها السبخ الملحية، وأكبرها سبخة مطي^(٣)، التي تفصله عن المملكة العربية السعودية، وتتركز أمكنة العيش فيه على الساحل، وفي واحة البريمي.

قطر

وإذا توغلنا نحو الشمال، نصل شبه جزيرة قطر، وهي إمارة مستقلة، في وسط الجانب العربي من الخليج العربي. يواجه ساحلها الغربي جزيرة البحرين؛ وحدودها الداخلية مع المملكة العربية السعودية لم تُرسم أبداً. ويُظنُّ أنها تتشكل من خط مستقيم وهمي يربط الساحلين بقاعدة شبه الجزيرة.

(١) لقد تم الاتفاق حول الحدود بين دول الخليج العربي والمملكة العربية السعودية في اتفاقيات ثنائية بين هذه الدول.

(٢) الشرق الأوسط ١٩٥٥، مطبوعات أوروبا، لندن. والكتاب نفسه في عام ١٩٥٧م يعطي دون حرج مساحة تتضاعف خمس مرات (٦٠ إلى ٣٠ ألف ميل مربع)؛ وإن التنقيب عن البترول الذي أصبح ناشطاً يرهص ببعض المواجهات الحامية بين الشركات المعنية.

(٣) سبخة ساحلية تمتد لمسافة ٤٨ كم، وهي على مسافة ٣٣٦ من حدود قطر الحالية. عن الدباغ، ج٢، ص ١٦٠ (الترجم).

مساحتها ٧٥٠, ٢٠ كم مربع، (٨ آلاف ميل مربع) من الصحراء المنبسطة كل الانبساط، بلا ماء يصلح للشرب، وبلا زرع، وساحل متعرج تكثر فيه الشروم، والصخور، وقد كان ريشار صانجيه Richard Sanger محقّقاً عندما وصف قطر فقال: «إنها موحشة كل الوحشة، حتى للعرب أنفسهم». وسكانها الذين يبلغ عددهم ٢٥ ألف نسمة هم بحارة وصيادو لؤلؤ. ولا مجال للزراعة هنا. ومياه الآبار النادرة مالحة. وتنتج بعض الواحات الصغير بعض التمور القليلة. وتتخذ شجيرات الشورى التي تنبت على طول الساحل علفاً لا يسمن للحيوانات التي يستخدمها البدو للركوب. ويمكن القول: إن قطر هي النمط المثالي [٣٦] للصحراء الحقيقية. وحده البترول هو الذي لفت الأنظار إلى هذه الأرض الموحشة.

البحرين

يحتل أرخبيل البحرين موقعاً مركزياً في الخليج العربي بين قطر ومنطقة الأحساء السعودية. والبحرين هو اسم الجزيرة الكبرى؛ وهناك خمس جزر أخرى، أكثر صغراً، اثنتان منها فقط مسكونتان: المحرق في الشمال، وترتبط بالجزيرة الأم برصيف نصف متحرك. وسترة في الغرب، وفيها واحدة من أكبر مصافي البترول في المنطقة. ويبعد أرخبيل الجزر البحرينية عن الساحل السعودي ٣٠ كيلو متراً.

مساحة الجزر البحرينية ٢١٤ ميلاً مربعاً-٥٥١ كيلو متراً مربعاً. ويبلغ طول الجزيرة الكبرى، وفيها العاصمة المنامة، إلى حوالي ٣٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب، وعرضها ١٠ أميال من الشرق إلى الغرب. وعلى العكس من جاراتها، فإن البحرين تهطل الأمطار في نصفها الشمالي على الأقل. وفيها عدد من العيون الطبيعية، وتتميز بعدد من البرك المائية التي جعلت العرب يسمونها «لؤلؤة بحر الزمرد». وقد كانت الجزيرة في غابر الأزمان مشهورة بلؤلؤها الذي يشعُّ ألقاً نادراً.

وقد وصف ألبير لوندري Albert Londres في كتابه صيادو اللؤلؤ الظروف التي كانت هذه الكنوز تستخرج فيها من مياه الخليج العربي الدافئة .

إن سدس عدد سكانها البالغ ١٢٠ ألف نسمة من أصول أجنبية؛ وهم على وجه الخصوص فرس وهنود . ٩٦٪ منهم مسلمون، ولكنهم منقسمون إلى سنة وشيعة يتفادى بعضهم بعضاً. إن السُّنة أقلية، ولكنهم يعدون أنفسهم أسياد البلد .

وتقع بين الطرفين مناقشات في بعض الأحيان؛ ومع ذلك فإن الهيجان والنقمة تنصبان منذ مدة قصيرة على الأجانب، الحُماة أو المستشارين البريطانيين، والتجار الهنود، والفرس واليهود، الذين يهاجرون إلى فلسطين المحتلة .

الكويت والمنطقة المحايدة

إذا تابعنا المسير نحو رأس الخليج، نساير منطقة الأحساء في المملكة العربية السعودية، فإننا نصل بعدها إلى هذه القطعة [٣٧] الموحشة المسماة: المنطقة المحايدة التي يبعث استغلال البترول فيها بعض مظاهر الحياة. ويتتهي بنا المطاف إلى الكويت الواقعة على خليج صغير، وتُعد ميناء طبيعياً رائعاً، مياهه عميقة، وهو الأساس الذي أقيمت عليه الإمارة: وهي مكونة أساساً من مدينة الكويت، الواقعة على الجانب الجنوبي من الخليج الصغير، وبجوارها ثلاث أو أربعة قرى. وإلى جنوبها البعيد يقع ميناء الأحمدي البترولي. إن حدود الكويت التي رُسمت بإشراف بريطاني عام ١٩٢٢-١٩٢٣م (معاهدة العقير) تحاذي العراق في الشمال، والمملكة العربية السعودية في الجنوب الغربي. وتفصلها الحدود الجنوبية عن « المنطقة المحايدة »، التي يقتسم شيخ الكويت والملك عبد العزيز حقوق السيادة عليها «بانتظار اتفاق لاحق»^(١). لقد تنازل كل منهما عن حقوقه في المنطقة لشركات بترولية أمريكية، اتفقت فيما بينها (اتفاق مصالح دون اندماج)، واكتشفت البترول الذي تستثمره: ويبدو أن هذا الحل يرضي جميع الأطراف.

(١) تعرف حالياً بالمنطقة المقسومة (المنيف).

والكويت صحراء رملية مستوية كل الاستواء، ليس فيها قطرة ماء واحدة تصلح للشرب، تبلغ مساحتها حوالي ٣٠ ألف كم مربع. والقسم الأكبر من هذه المساحة غير مأهول... ولا يصلح للسكن. لقد كان فيها فيما مضى ١٠ إلى ٢٠ ألفاً من البدو الرحّل، ولكن أكثر السكان بحارة، يتجمعون على الساحل، وغالبيتهم العظمى في مدينة الكويت. كان الكويتيون فيما مضى بحارة، وصيادي لؤلؤ، وملاحين، وبناء مراكب اشتهرت بجودتها. ومنذ اكتشاف البترول تضاعف عدد سكان الكويت بسبب هجرة العراقيين وعرب من الخليج؛ ويبلغ اليوم ٢٠٠ إلى ٢٥٠ ألف نسمة؛ وهم جميعاً عرب، مسلمون سنة، باستثناء ما يقارب ألفاً من الفرس، المقيمين فيها للتجارة منذ القرن الثامن عشر الميلادي. لقد غيرت الثورة البترولية الكويت تغييراً جذرياً، كم سنرى ذلك.

الخليج...العربي؟

لا بد قبل أن نختم هذا الفصل، من كلمة بشأن فكرة طرحها [٣٨] رودريك أوين . Roderic Owen نشر هذا الكاتب الإنجليزي في عام ١٩٥٧م كتاباً جيداً عن الخليج...العربي. وهو منذ مستهل كتابه ينبه القارئ قائلاً: إن العرب يرون أن تسمية الخليج الفارسي لا وجود له! أفرُّ أن هذه المساحة الشاسعة من الرمال والمياه كانت على الدوام جزءاً لا يتجزأ من الخليج العربي. وبما أنني لست قومياً عربياً، فإن الخليج، بتاريخه وعظمته، وبحقائقه وأساطيره، سيحتفظ عندي باسمه الذي حمله خلال زمن طويل.